الملبس والهوية الثقافية بين الانتماء والاغتراب..
رؤية انثروبولوجية

د. فؤاد غازي

قسم الانثروبولوجية التطبيقية

كلية الاداب – الجامعة المستنصرية

المبحث الاول

المقدمة

تعتبر الازياء مظهراً من المظاهر التي تعيشها الشعوب ، فانها ولا ريب تشكل مظهراً اخر يلتمس فيه ما تعانيه الشعوب من استغلال من جهة اخرى .

ويعتبر الملبس من اهم عناصر الثقافة المادية التي تحدد – ظاهرياً على الاقل – انتماء الفرد الى جماعة ثقافية او عرقية معينة ، وينعكس ذلك بصورة واضحة في التنوع الهائل في الخامات المستخدمة في صنع الملابس ، وهو تنوع يرتبط عادة بتنوع البسئات الجغرافية التي يعيش فيها الانسان ، كما ينعكس في تنوع الالوان والطرازات التي يكون لمنظومة القيم الثقافية السائدة دور كبير في اختبارها .

كما يعتبر الملبس (وما يقوم الانسان بنقشه على جسمه من علامات ، وما يتخذ من وسائل التجميل باعتبارها ذلك من ملحقات او مكملات الملبس ، وسيلة تحدد العلاقة بين جسم الانسان والعالم الذي يعيش فيه من ناحية وبين جسمه والاجسام الاخرى من ناحية اخرى (١) .

ورغم ان الاصول الاولى للملبس والزينة ما زالت غامضة فانه يبدون ان هناك دوافع عالمية وراء جميع اشكال السلوك المرتبطة بالملبس ، وربما تطورت الملابس الاولى من الحاجة الى الاحتماء من البرد الشديد ، الا ان الانسان ما ان اطمأن الى قدرته على الحصول على احتياجاته الجسدية حتى بدأ في ابتكار وتجميع اشياء من شأنها ان تحقق له مكانة اكبر (بين اقرانه) وقد يكون بمقدور الانسان الغني ان يرتدي قدراً اكبر من المجموهرات او نوعية من الملابس اكثر فخامة ولكن الجوانب الوظيفية للملبس تبقى هي نفس الجوانب التي يشترك فيها الغني مع الفقير (٢).

وتتجلى وظيفة الملبس من حيث هو وسيلة تكيف وتأقلم مع الظروف المناخية المتطرفة في اتخاذ سكان المناطق القطبية لملابس تغطى جميع اجزاء الجسم وتلتصق به التصاقاً شديداً ، وربما يرجع اصل السروال (البنطلون) الى المنطقة القطبية حيث هناك حاجة الى نوعية من الملابس تغطى الاطراف باحكام للمحافظة على درجة حرارة الجسم ، (٣) كما تتجلى هذه الوظيفة ذاتها في

اتخاذ سكان المناطق الاستوائية لملابس واسعة ربما بدأت بما يشبه التنورة المعلقة من حزام حول مفصل الورك ، وتصنع الملابس الاستوائية عادة من مادة نباتية (٤) .

ومن ناحية اخرى فانه يمكن تتبع اول رموز للمكانة في تاريخ الانسان الى العصر الحجري عندما كان الصياد يزين نفسه بقرون الوعل او جاود الحيوانات التي قتلها كاشارة او علامة على انجازه ، وفي العادة كان قائد الجماعة او القبيلة يمنح علامة مميزة في الملبس لابراز مركزه ومن هذه البدايات تطورت مجموعة معقدة من عمليات المفاضلة بين المكانات كالتيجان التي يلبسها الملوك والملكات والاردية والازياء الموحدة بصفة عامة التي تدل على رجال الشرطة والرهبان والقضاة ورجال البريد والبحارة والطهاة والبوابين (٥) .

ومن هنا فان الملبس باشكاله والوانه التي تتباين تبايناً شديداً يعتبر رمزاً للانسجام الاجتماعي والمرتبة الاجتماعية ، كما انه يعتبر علامة على مهنة الشخص ، ويعتبر الملبس العرقي Ethnic Clothing علامة على انتماء الشخص الى جماعة معينة (٦) ويتمثل هذا الرمز في اي شئ يستخدم لتغطية جسم الانسان وجذب الانباه اليه ، فيعرف على هذا الاساس على انه اية زينة جسدية او اي تغير في مظهر الانسان (فيشمل بذلك بعض السمات الثقافية كالوشم وادوات التجميل وطرق تصنيف الشعر وما الى ذلك (٧) .

وفضلاً عن وظيفة الملبس كوسيلة لتحديد هوية الانسان وخلق الاحساس بالانتماء والمحافظة على صحة الجسم وراحته فانه يلعب دوراً كبيراً في تأسيس جنس الفرد كذكر او انثى ، وفي دعم الجاذبية الجنسية ، وكامتداد لجسم الانسان ، بالاضافة الى الوظيفة الطقسية للملابس وهي وظيفة ترتبط بدورة الحياة في جميع المجتمعات البشرية تقريباً ، فلكل مرحلة من مراحل هذه الدورة ملبس خاص يرتبط بها ، كارتباط طقوس الزواج بالملابس البيضاء وطقوس الموت بالملابس السوداء مثلاً.

وفي المقابل هذا المفهوم الانثروبولوجي للملبس كوسيلة تكيف مع البيئة من ناحية ، وكرمز له دلالته في تحديد ملامح الهوية الثقافية والبناء الاجتماعي من ناحية اخرى ، برز في القرن العشرين مفهوم لا يقل اهمية عن مفهوم الملبس بصفة عامة ، ونعني بذلك انتشار شكل معين من اشكال الملبس في فترة زمنية معينة من تاريخ الجماعة وبين افراد فئات اجتماعية معينة ، وقد يطلق على هذا الشكل تعريف الزي السائد او زي الصفوة او زي الطبقة الراقية في المجتمع ، وهو شكل من الملبس لم يعرف له العرب مصطلحاً خاصاً به يدل على المعنى الدقيق الذي تحمله اللفظة الاجنبية الدالة عليه في الثقافة الغربية ، الامر الذي حدا ببعض العلماء

التي تبنى المصطلح الغربي لهذا المفهوم وهو الازياء (او المودة " كما يكتبها بعض الكتاب) تعريباً لكلمة Mode المستخدمة في اهم اللغات الاوربية كالانجليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية .

وبصفة عامة فانه يمكن تعريف الازياء بانها عناصر او انماط سلوكية لا منطقة وانتقالية تعاود الظهور في المجتمعات التي لا توجد بها رموز مستقرة للمكانة في الوقت الذي يسعى اعضاءها للحصول على اعتراف بمكانتهم والتعبير عن ذواتهم من خلال الميل الى محاكاة الصفوة وهذا التقليد يمثل قنوات التعبير عن الاذواق الجماعية مما يؤثر بدوره في احداث تغيرات اساسية في الحياة الذاتية للافراد وفي نظامهم المعياري (٨) .

اما من الناحية التخصيصة فقد اورد مارلين هورن Marilyn J.Horn في كتابها القيم المجلد الثاني (The second skin) عدداص من التعريفات لمصطلحات ارتبطت في الثقافة العربية بمفهوم الازياء نوردها فيما يلي لفائدتها في تحليل العلاقة بين الملبس كمفهوم عام والازياء باعتبارها خروجاً علة هذا المفهوم يتخذ اشكالاً متعددة .

تساؤلات البحث :

استهدفت هذه التساؤلات رصد موقف الاشخاص الذين اجريت معهم المقابلات الشخصية من قضايا معينة تشكل في مجموعها عنصراً اساسياً من العناصر التي تتالف منها الهوية الثقافية للشخص ، وبالتالي الهوية الثقافية للجماعة ، وهذه التساؤلات هي :

١- ما نوع العلاقة بين ملبس الشخص والزي التقليدي الشائع في المجتمع المحيط به ؟ .
٢- الى اي مدى يحرص الشخص على متابعة الازياء وما اسباب ذلك الحرص (ان وجد) ؟ .
٣- ماهي الضوابط التي تحدد موقف الفرد من متابعة احداث طرازات الملابس (ضوابط دينية ، ضوابط اجتماعية، ضوابط اقتصادية، ضوابط اخرى) ؟ .
٤- ما هو الاثر النفسي الذي تحدثه في الشخص متابعة للموضة ؟ .
٥- هل هناك فرق بين الملابس التي يرتديها الشخص داخل المنزل والملابس التي يرتديها خارج المنزل ؟ وما هو الاثر النفسي لكل من النوعين ؟ .
٦- ما هو الاثر النفسي لاستخدام ما يطلق عليه مكملات الملبس كالنظارات الشمسية ، واجهزة التسجيل المحمولة ، والتلفون المحمول ؟ .
٧- ما هو شعور الشخص – من حيث الانتماء او الاغتراب – تجاه جماعة ترتدي نفس الملبس الذي يرتديه ، وجماعة ترتيدي ملبساً مخالفاً .

٨- الى اي مدى تتعارض احدث طرازات الملبس مع منظومة القيم السائدة في المجتمع وما مغزى هذا التعارض ؟ .

اهمية البحث وسبب اختياره

ان هذه الدراسة انما هي محاولة بقدر الامكان للوقوف على تطور الازياء في العراق وهي دراسة علمية روعي فيها الطابع القومي والديني والجغرافي كما روعي فيها ان تكون من الدقة بحيث لا تتسع للظنون .

لقد شغلت فكرة الملبس وما يتصل بها من افكار ومفهومات حيزاً كبيراً من اهتمام العلماء والباحثين في العالم الغربي منذ القرن التاسع عشر ، وانعكس هذا الاهتمام في ذلك الكم الكبير من المؤلفات التي تناولت الملبس (والازياء والزي ، باعتبارها تغيراً يطرا على الملبس) والتي اختلف تناولها للموضوع باختلاف المنظور وزواية الاهتمام .

ورغم ذلك فان لم يلق من عناية القائمين على المؤسسات العلمية والتعليمية والاكاديمية ما يستحق من الاهتمام ، حيث لم تخصص الجامعات والمعاهد العليا مساحة كافية لدراسة تاريخ الازياء او التغيرات التي تطرأ على شكل الملبس ، فكان موضوع الزي في حالة حرب من اجل الاعتراف به كمجال دراسة حقيقية او كمجال يصلح للدراسة (٤٣) .

وربما كانت كلمات فاليري ستيل Valerie Steele رئيسة تحرير مجلة Fashion Theory في العدد الاول من المجلة الصادر في مارس ١٩٩٧ ، تعبر اصدق تعبير عن القيمة العلمية لمفهوم الزي السائد Fashion ... لم تكن الصورة جميلة ، فقد كان ينظر الى الزي باعتباره مادة جنسية بورجوازية تافهة (لا مادة فكرية) ... اما اليوم فان الازياء لم تعد كلمة محظورة في الدوائر الفكرية ، وفعلا فقد بدأ العلماء في كل التخصصات يستكشفون العلاقة بين الجسم والملبس والهوية الثقافية ، وهذه منطقة بحثية مثيرة تشهد تطوراً سريعاً (٤٤) .

ومما يؤيد هذا الراي وصف أ . ل . كروبر A.L.Krober للازياء بانها نوع من اللهو او اللعب الثقافي وربطه بينها وبين زيادة الثروة القومية و وقت الفراغ (٤٥) الا ان هذا النقد لموقف المؤسسات الاكاديمية لا ينبغي ان يكو سبباً في تجاهل بعض الاراء الجادة التي ذهب اصحابها الى ان اخضاع المصنوعات المرتبطة بالازياء للتحليل الشكلي يمكن ان يكتشف لنا عن دلائل تشير الى وجود مواقف وانساق معتقدات وافتراضات يمكن ان تلقي ضوءاً على الثقافة (٤٦) .

كما ان الدراسات العلمية الحديثة المهمة وتزايد الاهتمام بالملابس بين العلوم الاخرى انما يثبت انه اصبح من واجب مؤرخي الازياء التقليديين ان يستخدموا مناهج تتسم بقدر اكبر من التحليل والنظرية والنقد في ابحاثهم (٤٧) .

ومن هنا تاتي اهمية هذا البحث لنتاول هذه الظاهرة الثقافية التي بدات الجامعات في اوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية وكندا في دراستها بصورة اكاديمية علمية منظمة في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكان الدافع الاكبر الى الخوض في هذه المنطقة الشائكة من مناطق البحث هو اقتناع الباحث باهمية دراسة مفهوم الازياء في المجتمع العراقي دراسة انثروبولوجية تعتمد على عدد من المفهومات المادية ذات الصلة بملبس الانسان في الريف والحضر ، وتطور هذا الملبس من خلال تغير شكل الزي السائد في المجتمع واستخلاص المواقف والمعتقدات التي من شانها القاء الضوء على الثقافة المصرية اثناء فترة البحث .

منهج البحث

تعتبر دراسة الازياء من الدراسات الحديثة التي تتطلب – بحكم طبيعتها وتعدد الزوايا التي يمكن بحث الموضوع منها – منهجاً خاصاً يجمع بين بعض الاساليب المنهجية المستخدمة في علوم مختلفة وهو ما دعت اليه الكسيندر بالمر Alexandra Palmer في مقالة قيمة لها نشرت في مجلة Fashion Theory حيث تساءلت عن السبب في عزوف مؤرخي الازياء Fashion Historians عن اخضاع المصنوعات الخاصة بالازياء للتحليل الشكلي ، وارجعت السبب في ذلك اى ان مثل هذا التحليل يتطلب تجاوز الشئ موضوع الدراسة والدخول في منطقة الاستقصاء عن خلفية هذا الشئ ووظيفة في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، وهو ما يتطلب – بدوره – استخدام منهجية العلوم المتعددة التي يبدو ان كثيراً من مؤرخي الملبس ليسوا على استعداد للاخذ بها ، وتدافع مؤرخة الازياء باتريشيا كانينجهام Patricia Cunnigham عن هذا المدخل وتدعو من يدرسون القرن العشرين الى " محاولة اكتشاف ما يعنيه الملبس لمن يلبسونه ولمن ينظرون اليه " كما تقترح ان يهتم الباحثون بالمجالات الدراسية الاخرى كتاريخ الفن ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الاقتصاد ودراسات المرأة ، والدراسات الامريكية ، ودراسات الثقافات الشعبية ، وغير ذلك (٤٨) .

ومن هذا المنطلق فان البحث يقوم على عدد من الاليات المنهجية هي على وجه التحديد :

أ- تحديد اطار للعمل يتفق مع اهداف البحث .

ب- طرح عدد من التساؤلات النظرية التي ترسم الاجابة عليها في مجموعها صورة عامة للهوية الثقافية العراقية من وجهة النظر الملبسية .

ت-زيارة بعض القرى والمدن العراقية بغرض :

١- رصد واقع الملبس في القرية والمدينة (سواء كان تقليدياً او متابعاً لاحداث اتجاهات الازياء) .

٢- طرح تساؤلات البحث على عدد كبير من الافراد من الجنسين ومن فئات عمرية مختلفة مع التركيز على الشباب باعتبارها الفئة الاكثر تأثيراً بالازياء .

٣- وصف وتحليل المعلومات التي تم جمعها اثناء البحث .

اطار العمل :

خصصت الباحثة الامريكية مارلين هورن Marilyn . Horn الفصل السادس من الجزء الاول من كتابها الممتع The Second an Interdisciplinary study of Clothing للحديث عن الاسباب الكامنة وراء سرعة تغير الازياء ، واجملت هذه الاسباب في النقاط الاتية: (١) النظام الديمقراطي المفتوح (٢) زيادة الثروة وانتشارها (٣) زيادة وقت الفراغ (٤) زيادة تأثير الالعاب الرياضة (٥) انتشار التعليم (٦) زيادة الاحتكاك الثقافي (٧) زيادة الاهتمام بالشباب (٨) الفوران الاجتماعي (٩) تحسين اوضاع المرأة (١٠) التقدم التكنولوجي (٤٩).

ويرى الباحث ان كل سبب من هذه الاسباب يصلح لان يكون في حد ذاته اطاراً عاماً لدراسة موضوع البحث الا انه نظراً لاستحالة الجمع – من الناحية العلمية – بين اكثر من اطار لما قد يترتب على ذلك من تشعب مسار البحث وتعقده من ناحية ، وخروج عن التساؤلات التي يطرحها البحث من ناحية اخرى ، فقد تم اختيار الاطار الذي رأى الباحث انه يتفق اكثر من غيره مع مقتضيات البحث واهدفه ، وهو الاحتكاك الثقافي .

وفي ظل ثورة الاتصالات التي بدأ العالم يشهدها منذ اواخر الالفية الثانية ومع مطلع الالفية الثالثة وما اقترن بها من مفهومات جديدة كالمعلوماتية وشبكة الحاسب الالي الدولية(الانترنت) والعولمة ، وانتقال الارسال التلفيزيوني عن طريق الاقمار الصناعية عبر ما اصبح يعرف بالقنوات الفضائية ، يتخذ الاحتكاك الثقافي بعداً ، فالسرعة الفائقة التي تنتقل بها المعلومات بين المناطق المتباعدة جغرافياً قد دمرت تقريباً حاجز المنكان والزمان واصبح بمقدور اي جماعة عرقية او ثقافية الاطلاع على ما عند اي جماعة اخرى ، واصبح الاحتكاك بين الجماعات البشرية المختلفة – وتبادل التأثير والتأثر فيما بينها – أمراً واقعاً لا يحتاج الى انتقال الرحالة والمستكشفين والجغرافيين لمسافات بعيدة او الاعتماد على روايات الاخباريين او حتى التجاوز المكاني بين الجماعات المختلفة .

ولا شك ان عناصر الثقافة المادية هي اكثر العناصر تأثراً بالاحتكاك الثقافي ، واسرعها استجابة له ولا شك ايضا ان التغير الذي يطرأ على هذه العناصر سرعان ما يتغلغل في منظومة القيم السائد ويحدث تأثير فيها بالتعديل او التبديل او التكيف مع الاوضاع السائدة ، والملبس باعتباره واحداً من اهم عناصر الثقافة المادية في جميع المجتمعات البشرية على اختلاف اصولها وانتماءاتها الجغرافية والتاريخية ، وهو العنصر الذي يتجلى فيه بكل وضوح اثر الاحتكاك الثقافي بين الثقافة المحلية والثقافة الاجنبية من جهة ، وبين الثقافة الاصلية والثقافة الفرعية من جهة اخرى ، وما انتقال شكل معين من اشكال الملبس (من حيث الاستعمال او المادة او اللون) من منطقة جغرافية معينة الى منطقة اخرى الا تجسيداً للاحتكاك الثقافي بين الجماعات العرقية والثقافة المختلفة

المبحث الثاني

مفاهيم الدراسة

١ - نموذج الملبس Clothing norm

يمثل نموذج في جماعة اجتماعية معينة ، كما يعمى الالتزام بهذا النموذج قبوله او التمسك به ، اي ارتداء الملابس طبقاً لمعيار تضعه الجماعة ، وبتستثناء كلمة style فان جميع التعريفات التالية يمكن اعتبارها نماذج معيارية للملبس Clothing norms .

٢ - الطراز Style

يقصد بهذا اللفظ الشكل المميز او الخاص للملبس الذي يرتبط بصفات او ملامح معينة يمكن التعرف عليها وتميزه عن الاشكال الاخرى ، وبصفة عامة فان تصميم الثوب وفقاً لطراز معين هو عمل يتعلق بتصميم الثوب او تفصيله كما يرتبط هذا التصميم بخطوط الثوب او شكله او مقاساته ، وهكذا فان هناك طرازات مختلفة من المعهاطف (في المجتمعات الغربية) مثا الريدينجوت (٩) والبالمكان (١٠) والشستر فيلد(١١) والترانش (١٢) وطرازات مختلفة من القبعات كقبعة بريتون(١٣) وقبة البولر(١٤) وقبعة الفيداورا (١٥) وقبعة الكلوش (١٦) ، كما ان هناك طرازات مختلفة من الاحذية كحذاء اكسفورد (١٧) الصندل (١٨) وحذاء البامب (١٩) والبوت (٢٠) وحذاء البروج (٢١) .

٣ - الازياء

وهو تعبير احصائي يمثل اكثر اشكال السلوك الملبسي شيوعاً بين مجموعة معينة من الاشخاص ، او بعبارة اخرى اكبر درجة من التكرار للطراز ، فلو اننا لاحظنا سلوك مجموعة من السكان من حيث الملبس لامكننا ان نحصي عدد المرات التي يرتدي فيها كل شكل من اشكال الملابس المتنوعة ، ويمدنا هذا الاجراء الاحصائي بنوعين من المقاييس يتعلق اولهما بمجال التنوع في الملبس بينما يشير الثاني الى الطراز الاكثر تكراراً (او الازياء) .

٤ - **النماذج العامة** Universals **والبدائل** Alternatives **والازياء** Specialties

تعبر هذه المصطلحات عن مدى قابلية النموذج للاستخدام ، فالنموذج العام Universal ينطبق بصفة عامة على كل فرد من افراد المجتمع ، ومع ذلك فان معظم المجتمعات تسمح بدرجة معينة من درجات التنوع والخروج عن النمط النموذجي ، فقد تكون سراويل ليفانز Levi ,s (٢٢) هي الازياء داخل الحرم الجامعي ولكن السراويل الفضفاضة المنتفخة التي تسمى Bell Bottoms او Baggies او سراويل Lvy – Leagues (٢٣) قد تكون ايضا بائل Alternatives يعتبر كل منها نموذجاً للملبس Norm ولكنه لا يستبعد النموذج الاخر .

اما الازياء الخاصة Specialties فهي نماذج تقتصر على جماعة فرعية معينة Sub-Group ففي السبيعينات من القرن العشرين كانت التنورة القصيرة جداً Micro-mini skirts هي الازياء للاناث الصغيرات التي تتراواح اعمارهن بين الثالثة عشرة والخامسة والعشرين ولكنها لم تكن النموذج لجميع الاناث .

٥ - **الزي السائد** Fashion

يمثل هذا المصطلح الطراز السائد المقبول الذي يتمتع بالشعبية في اي فترة معينة ، وبهذا المعنى فانه يعتبر مرادفاً لمصطلح الازياء ، ولكنه يتميز بخاصية اضافية هي طبيعته الدائرية ، اي صعود هذا الزي التدريجي وبلوغه الذروة ثم تراجعه بعد ذلك من حيث القبول الشعبي للطراز ، وفي طريق هذا الطراز الى الشعبية فانه لا يرتديه الا عدد قيل نسبياً من الاشخاص الذين يستطيعون من الناحية المادية ان يكونوا مختلفين عن غيرهم ، ومع انتشار شعبيته يقفز المزيد من الاشخاص الى هذه العربية الموسيقية (اي ينحازون الى هذه الفئة من الناس التي تشير جميع الدلائل الى انها صاحبة الحظ الاوفر في الفوز) حنى يتضاعف حجم من يرتدون الطراز اخيراً ويصل الى ذروة القبول ولا يستطيع احد من الناحية المادية ان يكون مختلفاً عنه ، ولكن ما ان يستطيع كل انسان ارتداءه حتى تنظفئ جاذبيته ويكون مصيره المحتوم هو النسيان .

٦ - **الزي التقليدي** Classic

يدل هذا المصطلح على زي سائد Fashion يرتبط بوقت معين ويحظى بقول عالمي الى درجة انه يتبلور تدريجياً في شكل نموذج تقليدي للملبس ، وتبقى مثل هذهالطرازات شائعة لوقت طويل جداً حتى انها تبقى على خط الحدود بين الزي السائد Fashion والعرف Custom ومع مرور السنوات اصبحت طرازات من قبيل البلوزة النسائية او طاقم التنورة والسترة او المعطف المصنوع من وبر الجمل ذو الدرزات على الحواف ونصف الحزام على الظهر والمسمى بولوكوت Polo coat تعرف بانها من الملابس الكلاسيكية Classics .

٧ **احداث الازياء** High style

لا نجد هذا المصطلح (الذي اشتهر في صيغته الفرنسية Haute Couture الا في المراحل الاولية من دورة الزي السائد Fashion ونظراً لجدة هذه الازياء وارتفاع سعرها وابتكارها فانه لا يرتديها الا الاشخاص الذين يمتلكون صفات مبتكري الزي ، وهي تتميز بسحر التعالي على الاخرين بسبب الشعور بالتفرد ، وعندما تفقد هذه الازياء مكانتها " كاحداث ازياء " وبسبب الانتشار السريع للنسخ المقلدة لهذه الازياء فان دورة حياتها تقتصر كثيراً ، ومع ذلك فانه يجب التاكد من الاحتمالات المتوقعة لانتشار احدث الازياء قبل ان يقوم المنتجون بانتاجها كمياً ، ولا تتحقق لجميع الازياء التي يطلق عليها احدث الازياء او High style سعة الانتشار فبعضها يختفي وينساه الناس لابتعادها عن الانماط التقليدية للملبس ، وبعضها يستمر في الاستخدام المحدود بسبب تكلفة العالية او توفر بصورة تحول دون استمراه .

٨ **البدعة الوقتية** Fad

يستخدم هذا المصطلح للاشارة الى نوع مصغر من الزي السائد Fashion وهو في العادة اكثر تفاهة او غرابة من الزي السائد Fashion الطبيعي او المعتاد ، وهو لا يصل غالباً الا الى عدد اقل من الاشخاص ، كما يكون في البعض الاحيان قاصراً على ثقافة فرعية ، وتتميز البدع الوقتية بانبثاقها المفاجئ من حيث شعبيتها وانتشارها لعدة اسابيع او شهور ثم اختفائها من الوجود بنفس السرعة التي جاءت بها ، ومن هذه البدع الوقتية في الملبس اربطة الاحذية المتصالبة واحذية التنس الملونة والكنزة الفضافضة المزركشة التي يرتديها الرياضيون وعقود الخزر الطويلة والسترات الفضفاضة المخططة التي

يرتديها لاعبو التنس والبلوزة ذات القبعة والسوار التعويذة ورقعة المرفق ، الى ما لا نهاية ، واحياناً تتركز البدعة الوقتية حول شخص معين او جماعة معينة او حدث معين ، فشعبية البيتلز Beetles تسبب في ظهور قمصان البيتلز وسترات البيتلز وقصة شعر البيتلز ، ونادراً ما نجد بدعاً وقتية Fads تتجاوز حياتها الانهيار السريع لتبقى وتصبح نوعاً من الزي السائد Fashion (كالاحذية ذات الابزيم Buck S hoes واللالي التي تلبس مع الكنزات) ولكن الغالبية العظمى لا تبقى اكثر من ستة اشهر .

وباستثناء طراز الملبس Style فان كل هذه المفهومات السابقة تحظى بدرجات متفاوتة من الالتزم بها تتوقف على مدى قبول الناس لها (٢٤) .

المبحث الثالث

المدخل التاريخي للدراسة

من المؤكد ان فكرة الزي السائد Fashion قد وجدت قبل ما اصطلح على تسميته بالعصر "الحديث" ورغم ان وجدوها قد اقتصر على دوائر النخبة الا انها قد تعايشت مع ملبس الجماعات الاجتماعية المتخلفة والزي السائد فيها (٣٤) تشهد بذلك شواهد نجدها في نصوص متفرقة لادباء ومفكرين وفلاسفة عاشوا قبل هذا العصر "الحديث" من ذلك مثلا قول لورد تشسترفيلد Chesterfield في رسائله الى ابنه ١٧٥٠ " اذا لم تكن ترتيدي الزي السائد فانت لا تمثل شيئاً وقول توماس فولر Thomas Fuller في سنة ١٧٣٢ : ان الزي السائد حالياً هو زي انيق دائماً وقول لاروشفوكو Rochefoud في سنة ١٦٦٥ " ان الجزء الاكبر من الجنس البشري يحكمون على الناس فقد بمدى اتباعهم للزي السائد او بما لديهم من ثروة بل اننا نجد حكمة لاتينية قديمة تقول " ان الزي السائد اقوى من اي طاغية اخر (٣٥) .

ورغم محاولة النقاد الثقافيين حديثاً انتزاع مفهوم الزس السائد من تراثه الاوربي الذي استاثر به وذلك بوضع تعريف جديد له بأنه حركة دينامية بين الجسم والموطن الاجتماعي اشتركت فيها جميع الشعوب ، فان هذه الاتجاهات لا ينبغي ان تحجب عنا الحقيقة التاريخية القائلة بأن اقتران الزي السائد بالحداثة الاوربية هو مفهوم ظهر منذ قرون عديدة وامن يه كثير من الناس خارج العالم الغربي (٣٦) .

وفي الاربعين سنة الماضية اصبح الزي السائد وسيلة اتصال جماهيرية تماماً وادخال تغيرات عميقة على طبيعة علاقته بالزمن والعالم والقيم والايدولوجيات (٣٧) واذا كانت مقدمات ذلك البعد الجماهيري – الفعلي او المحتمال – قد ظهرت فعلاً في نهاية القرن التاسع عشر فانها لم تتأكد الا في النصف الثاني من القرن العشرين (٣٨) .

ولقد ارتبط تطور النظرة الى الملبس والتغيرات التي تطرأ على اخترف مسمياتها بتطور وضع المرأة في المجتمع واقتحامها مجالات ظلت لزمن طويل حكراً على الرجال ، فمع تأسيس الجامعات في الولايات المتحدة وفتح ابواب التعليم العالي لبنات الاسر الامريكية وابنائها على السواء لم تعد المرأة تقنع بقول حياة التبعية ، وبقبول المرأة للعمل في الوظائف المكتبية والمهنية دخلا في منافسة مع الرجال كانت جديدة واقتصادية بحتة ، وفي الوقت نفسه شهد المجتمع انطلاق اختراع جديد هو الدرجة التي ترتب على التحمس لركوبها باعتبارها رياضة نسائية ظهور مشاكل بين الداعين الى المحافظة على الاخلاق تمثلت في الاجابة على هذا السؤال : اي الامرين اسوأ ، ورفع التنورة بحيث تكشف الكاحل وأسفل الساق او تغطية الساقين بالبلومرز Bloomers وهو سروال فضفاض مزموم عند الركبتين كانت النساء يلبسه عند ممارسة الالعاب الرياضة ، وكسب السروال الفضافض المعركة وكان ارهاصاً بتطور الملبس الوظيفي في مجال الالعاب الرياضية الاخرى ، لقد هيأت الملابس التي تعرى الجسم

والتي اقترنت بممارسة الالعاب الرياضية المجتمع كله لمجموعة جديدة من القيم تتجه الى تعرية جسم الانثى وتسهم بدرجة كبيرة في تحرير المرأة الحديثة من السلوك المفروض عليها تقليدياً من الاجيال السابقة (٣٩) .

ولقد كان من شأن مفهوم الزي السائد وما ترتب عليه من تعريض جسم الانسان لعمليات تحول لا نهائية ان قلب التوازن وفضى على الوظيفة الصارمة للملابس التقليدية ، بل وعكس وظيفة الاقمشة في تغطية الجسم بان جعلها شفافة ، وحول الجسم الى عملية عقلية تكون جزءاً لا يتجزء منه جسماً معرضاً للتحولات والانفتاحات الغربية على العالم ، وجسماً يشعر بكل ما يشعر به العالم ويتذوق كل ما يتذوقه ببساطة بالغة اذا ترك نفسه ينفتح عليه (٤٠) .

وعندما نتحدث عن الزي السائد فان ذلك يتضمن حتماً الاشارة الى جسم الانسان او بالاحرى الاجسام التي يغطيها الزي السائد ، فالجسم المغطى هو موضوع في طور الصنع ، او موضوع يجري انشاؤه عن طريق هيئة وطريقة ظهوره ، وبهذا المعنى فان الجسم يكون اداء وعملية انشاء مستمرة للهوية المادية كما يكون بمثابة البعد الدنيوي للذاتية (٤١) .

واذا كان الزي السائد هو النظام الذي تقرر فيه قواعد الملبس ، فقد كان اول من وصف هذه القواعد من وجهة النظر السوسيولوجية هو جورج زيمل George Simmel في سنة ١٨٩٥ حيث عرف الخصائص الاساسية للزي السائد في اطار ثلاثة عناصر متتابعة هي البعد الزوالي ، وتأكيد الجماعة الاجتماعية لذاتها ، والعلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع .

وظائف الازياء

واذا كانت وظيفة الملابس تتركز اساساً في كونه وسيلة تكيف وتأقلم تحقق الانسجام بين الانسان وبيئته الطبيعية ، وتعبر في الوقت ذاته عن المرتبة او المكانة الاجتماعية للفرد فان الازياء ربما كانت تتمثل في القيمة التي يتقلها الزي الى الفرد الذي يرتديه ، فالازياء تمد بالاحساس النفسي وتجدد من اهتمامه بذاته وتقدير لها ، كما انها تنشئة من الاحساس بالاكتئاب وتثرى تجربته الشخصية (٢٥) .

اما من وجه النظر العلمية فان الازياء تمثل ظاهرة فريدة تسهل القيام بتحليل اجتماعي لا يمكن تحقيقه عند التامل مع بعض الظواهر الاقل مادية في السلوك البشري فالموضات يمكن تحديد تاريخها بدقة الى حد ما وطول التنورة وابعادها الاخرى يمكن قياسها وعدد الاشخاص الذين يرتدون الازياء يمكن حصرهم وبداية ونهاية كل دورة من دورات الازياء يمكن تقريرها عادة بدقة نسبية (٢٦)

ويقول يونج Young في كتابه " علم النفس الاجتماعي " الذي نشر عام ١٩٥٦ في نيويورك " ان الازياء كشكل للسلوك تتعلق بالاشياء الشائعة في المجتمع كالملابس والاثاث والمساكن وطائفة هائلة من المظاهر الاجتماعية " في حين يؤكد بونر H. bonnor ان مصطلح الازياء لا ينطبق على الازياء والملابس فحسب ولكنه يستخدم ايضاً في الاشارة الى اي نشاط متكرر يشبع اهتمامات عدد كبير من الناس ، ويعد روبرت بيرستيد R . bierstedt من بين اولئك الذين يتبنون منظوراً خاصاً في دراسة الازياء ، فالفرد في رأيه يسعى الى ايجاد نوع من التوازن بين مطالبه الشخصية والمطالب المجتمعية حيث يكون هناك ميل لدى الناس ان يكونا في موقف متشابه للافاقهم واقرانهم ة، في نفس الوقت الذي يهتمون فيه بوجود فوارقبينهم ، وربما كان السبب الاساسي في امتثالهم للمعايير انهم يحققون نوعاً من التوحد مع جماعاتهم ، ولكنهم في الوقت ذاته يرغبون في التعبير عن فرديتهم المتميزة والازياء هي وسيلة مفيدة في الوفاء بهذه الرغبات المتعارضة .

ولقد كانت تعليقات زيمل G. simmel على الازياء كواحدة من عمليات التباين الاجتماعي دليلا على اعتقاده انها نوع من انواع المحاكاة او التقليد ويقول " ان الازياء شكل من المحاكاة وعامل من عوامل التباين الاجتماعي ، فهي توحد بين الذين ينتمون الى طبقة اجتماعية معينة كما انها تفصلهم عن غيرهم من اعضاء الطبقات الاخرى (٢٧) .

وربما كانت اول اشارة في التراث العربي المكتوب الى الفرق بين الملبس باعتباره حاجة اساسية ثابتة من حاجات الانسان ، والازياء كظاهرة ثقافية متغيرة (ذات دلالة اجتماعية) في ما ورد في القران الكريم في قول الحق سبحانه وتعالى " يابني ادم قد انزلنا عليكم لباساً يوارى سواتكم وريشاص ولباس التقوى ذلك من ايات الله لعلهم يذكرون " (٢٨) وقد ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الاية ان الله تبارك وتعالى : يمتن على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش هو يتجمل به ظاهراً ، فالاول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات " (٢٩) .

وعلى حين اشارة ايكة هولتكرانس في قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور الى الازياء باعتبارها السلوك الممثل للافكار السلوكية السائدة في مجتمع الطبقة العيا (٣٠) وهو ما يعتبر تأكيداً غير مباشر لمل قرره القران الكريم من قبل من كمالية الرياش او الازياء – ذهب زيمل الى ان الرابطة بين الازياء والجماعات الاجتماعية تتمثل في ان الازياء تنمي لجزء واحد فقط من اي جماعة اجتماعية

بينما يمكن لبقاقي الجماعات ان تطمح اليه فحسب (٣١) مؤكداً هو الاخر ان الازياء انما هي من الكماليات خلافاً للملابس التي تعبر من الضرورات في حياة الانسان سواء كوسيلة تكيف او كرمز لاثبات مكانة اجتماعية معينة .

اما العالم الروسي بيتر بوجاتيرف (وهو المتخصص في دراسة العلاقات كعلم Semiology فقد مضى ابعد من ذلك حين قام في سنة ١٩٣٧ بتحليل الزي القومي لمورافيا مستخدما منهجاً وظيفياً وخلص من دراسته الى اعتبار الملبس نسقاً من الاشارات تؤدي وظائف محدودة ، بينما رأي في الازياء النقيض الفعلي للباس القومي لسببين هما :

١-ان اللباس القومي يبقى ثابتاً لا يتغير بينما تتغير الازياء بسرعة .
٢- ان اللباس القومي يخضع لرقابة الجماعة بينتما تعتمد الازياء على افضليات من يخلقونها (٣٢)

ونلخص من تفرقة بوجاتيريف بين الملبس والازياء والتي استند فيها الى سرعة تغير الازياء في مقابل المظاهر التي يتحلى فيها التغير الثقافي ، ويؤيد هذا الراي ما ذهب اليه بارتون شفارتس Barton , Schwaetz و روبرت ايوالد Robert Ewald من ان الرغبة في التغير لا تتضح في شئ مثلما تتضح في الوضة اي في التغيرات الدائرية قصيرة الاجل والتي تحدث بشكل دوري في سلسلة من المنتجات الثقافية كالتغيرات الموسمية في الملبس والتغيرات الثانوية في طراز السيارات والتغيرات المرموقة والمرتبة الاجتماعية العالية هما من الجوائز التي يلقاها من يتحركون في عالم الطرازات الراقية او عالم الازياء (٣٣) .

المبحث الرابع

الجانب الميداني

الزيارات الميدانية والمقابلات الشخصية :

اولاً الزيارات الميدانية :

لوحظ في الزيارات التي جرت في قرى جنوب شرق محافظة بغداد ، ان الخصائص العامة التي يتميز بها ملبس السكان رجالاً ونساء هي الاحتشام ومراعاة القواعد الدينية والاهتمام ايضاً بمراعاة بعض الاعراف الملبسية التي تجعل من الملبس الريفي التقليدي تراثاً متوازناً عن الاباء والاجداد وتجلى هذه الخصائص في الملابس الريفية التقليدية للرجال في ارتداء الدشداشة ، وتعددت انواعها .

وان الملبس بتغطيه لجميع اجزاء الجسم يحقق هذف الاحتشام من ناحية ، ويخدم غرضاً دينياً من ناحية اخرى ، فأما الاحتشام فيرتبط بفكرة الحياء التي تتميز بها المجتمعات الريفية ، واما الجانب الديني الذي يربط بارتداء الدشداشة والسروال فيرجع الى مفهوم العورة في الدين الاسلامي ، حيث ان ستر العورة يعتبر من شروط الصلاة ، وهو شرط يتحقق في حالة ارتداء الدشداشة و السروال الذي يضمن عدم كشف اي جزء من الجسم اثناء الصلاة كما يرتبط الملبس الريفي للرجال بالمناسبات الاجتماعية المختلفة ، ففي المناسبات الهامة يحرص الرجال على ارتداء الدشداشة المصنوعة من قماش سميك .

والى جانب هذه الوظائف الثقافية للمبلس في الريف هناك الوظيفة الايكولوجية التي تمثل التفاعل بين الانسان وبيئته ، فالدشداشة تعتبر اكثر ملاءمة للمجتمع الريفي نظراً لطبيعة العمل في الحقول والاجواء المشمسة حيث تساعد على تهوية الجسم وعدم الشعور بالضيق ، فضلاً عن سهولة ارتدائه حيث يميل اهل الريف الى السهولة واليسر في حياتهم .

ولا تختلف الملابس التقليدية للمرأة الريفية ، من حيث وظيفتها الثقافية والايكولوجية عن ملابس الرجال ، بل يطلق على ثوب الرجال والمرأة جميعاً لفظ ثوب الذي حرفته العامية البغدادية الى دشداشة .

وتكون ملابس المرأة الدشداشة عادة واسعة وطويلة تتميز بالاحتشام ويغلب عليها اللون الاسود بل ان الدشداشة تعتبر من اللوازم الضروية للمرأة الريفية ، ويجب ان ترتدي الشداشة اثناء تجولها في القرية او عند زيارتها لاي شخص في القرية او في العزاء ، بل انها ترتدي الدشداشة السوداء في الافراح والاعياد ايضاً ، وبصفة عامة فان المرأة التي مات زوجها او التي تجاوزت سن الاربعين عادة ما ترتدي الملابس الداكنة مع الايشارب الاسود .

وفي مقابل هذه الاعراف والقيم التي تنطوي على قدر غير يسير من الصرامة في التعامل مع الملبس في الريف فان المجتمع الحضري لايكاد يعرف زياً معيناً بطابع الانتشار الذي يجعل منع

عنصراً محدداً من عناصر الثقافة المادية للجتمع ، ففي المدن العراقية (بغداد، البصرة، الموصل) تختلط الازياء الريفية التقليدية (نتيجة للهجرة من الريف الى الحضر او لوجود اعداد كبيرة من ابناء الريف في المدينة للتجارة او التزوار او قضاء المصالح بالدواوبين الحكومية) بالازياء الاوربية التي دخلت العراق منذ مطلع القرن التاسع عشر مع وفود الثقافات الاوربية في صورة غزوات عسكرية كالاحتلال البريطاني ، فضلاً عن تأثير الاحتكاك الثقافي الناجم عن ارسال عدد كبير من العراقيين لاستكمال تعليمهم في الدول الاوربية حيث عادوا محملين بسمات عناصر الثقافة الاوربية التي بدأت تغزو المجتمع العراقي في المدن بصفة خاصة .

وفي مقابل الاحتشام الذي نلمسه في الملابس في المجتمع الريفي نلحظ تحللاً من هذا الاحتشام او عدم الالتزام بالقواعد الدينة والاعراف الاجتماعية التي سادت في العراق قبل حدوث الاحتكاك الثقافي بالمجتمعات الاوربية على النحو الذي سبق ذكره ، فعلى حين تتميز ملابس ابناء الريف في المناسبات الهامة كحفلات الزفاف وطقوس العزاء بالوقار والاحتشام نجد ان المرأة في المجتمع الحضري مثلاً تميل الى ارتداء ملابس تكشف عن مساحات كبيرة من جسدها في المناسبات الاحتفالية كحفلات الزفاف او حفلات الاستقبال او اعياد الميلاد.

وعلي حين يصعب تصنيف المجتمع الحضري الى فئات محددة حسب الملبس (اللهم اذا اكتفينا بتصنيف عام جداً يقسم المدينة الى فئتين ، فئة تاخذ باسباب الازياء وتحرص على متابعتها وفئة لا تهتم بالازياء كثيراً) فانة يمكن تقسيم المجتمع الريفي ، الى فئات ملبسية حسب العمر فالملابس الريفية التقليدية المذكورة من قبل تنتشر بين الافراد الذين تجاوزا سن الثلاثين اما فئة الشباب الذين يتلقون تعليماً عالياً او متوسطاً فيغلب على ملابسهم طابع التحضر نتيجة للاحتكاك الثقافي الذي يتعرضون له من خلال :

١- احتكاكهم بابناء المدن التي يتلقون تعليمه فيها .

٢- احتكاكهم بأهالي المدن التي يعملون بها .

٣- مشاهداتهم للتلفزيون و القنوات الفضائية الذي لا يخلو منه منزل .

٤- اطلاعهم على الصحف والمجلات ووسائل الاعلام الاخرى .

وهناك اخيراً فئة كبار الموظفين في المجتمع الريفي كالقضاة والاطباء واساتذة الجامعات وهؤلاء يرتدون البدلة(الزي الرسمي الحضري للرجال الاعمال واصحاب المناصب العليا) في المدينة ولكنهم ما ان يعودوا الى موطنهم الاصلي بالقرية حتى يتخلصوا من الملبس الحضري ويهرعوا الى الدشداشة القروية الذي يجدون فيها الراحة والتحرر من القيود التي تقرضها عليهم طبيعة عملهم .

ثانياً : المقابلات الشخصية :

لم تكن التساؤلات التي طرحت على الافراد الذين اجريت معهم المقابلات الشخصية تهدف الى الحصول على اجابات نمطية يجري تبويبها وتصنيفها في جداول وخرائط بيانية جامدة بقدر ما كانت كانت محاول للتغلغل في النفس البشرية والتعرف على الدوافع الخفية التي تشد الانسان الى ماضيه فيتشبث بتقاليد واعراف استقرت في وجدانه لسنوات طوال ، او تدفعه الى الامام دفعاً فينتزع نفسه من قيود التقاليد وينطلق الى الامام ليصنع مستقبلاً جديداً يواجه تحدياتة بهوية جديدة .

ولم يكن من حق الباحث – وبمقضى المصلحة الامانة العلمية – ان يستبق الاحداث فيتوقع غلبة دافع من هذه الدوافع على دافع اخر او دوافع اخرى ، او ينتصر لهذا الدافع او ذاك ، بل كان من واجبه المحافظة على حياديتة ازاء الاجابات التي تصله على تساؤلاته ، والتزام الموضوعية الكاملة وهو يستخلص من هذه الاجابات السمات المميزة لهوية ثقافية على مفترق الطرق بين الثبات والتغير ، او بين التقليد والتجديد ، او بين التراث والمعاصرة ، او بعبارة اخرى بين محافظة الانسان على الملبس التقليدي في جماعته العرقية او الثقافية واتخاذ لاحدث الازياء التي تأتي بها الازياء ، تلك الساحرة الغامضة التي تشير بعصاها السحرية فيتحول الفبح الى جمال او الجمال الى فبح ، وهي في الحقيقة لا تغير من شكل ولون وخامة ملابس الانسان بقدر ما تغير من معنى هذه الملابس ووظيفتها ونظرتنا اليها .

لذلك فقد اتخذ البحث الميداني هنا شكل المقابلات المفتوحة غير المقننة لعدد من الافراد و روعي ان يشمل مختلف الفئات العمرية من الذكور والاناث في المجتمعيين الريفي والحضري حيث تتيح مثل هذه المقابلات تحقيق الهدفين اللذين ينبغي الاشارة اليهما وهما رصد الواقع الملبسي كما هو وطرح تساؤلات البحث على هؤلاء الافراد بطريقة تتسم بالمرونة وتحقق للباحث حرية التصرف عند توجيه الاسئلة وفق استجابة المبحوث وهذا نوع من المقابلات يستخدم بصفة اساسية في البحوث الانثروبولوجية (٥٢) .

ولقد امكن من خلال هذه المقابلات تتبع مدى مسايرة الافراد لاحدث اتجاهات الازياء بالمجتمعيين الريفي والحضري وما يرتبط بهذه المتابعة او المسايرة من جوانب سلوكية ونفسية واجتماعية ، وفيما يلي تعرض لما اسفرت عنه هذه المقابلات بالوصف والتحليل .

اولاً : الجوانب السلوكية المرتبطة بالازياء في المجتمعين الريفي والحضري

امكن من خلال اجابات الاشخاص الذين شملتهم المقابلات الشخصية على الاسئلة الثلاث الاولى والخاصة بالعلاقة بين ملبس الشخص والملبس الشائع في الجماعة المحيطة به ، ومدى حرصه على متابعة الازياء ، والضوابط التي تحدد موقفه منها رصد بعض المواقف السلوكية المرتبطة بالازياء في المجتمعين الريفي والحضري ، والتي تتمثل فيما يلي :

شعر ابناء المجتمع الريفي من فئة الشباب – ذكوراً واناثاً – بوجود اختلاف بين ما يلبسون وبين الزي الريفي والتقليدي الذي يرتديه جيل الاباء والامهات ، وتتميز متابعتهم للموضة بالوعي بهذا الاختلاف والاستهانة به في نفس الوقت ، الامر الذي ينعكس في حرص هذه الفئة على متابعة احداث الازياء – تشبها بابناء المجتمع الحضري – وذلك في ظل مجموعة من الضوابط التي تتحدد قدرة الفرد على متابعة وتقليد هذه الازياء اهمها مجموعة القيم الدينية ، حيث لا تزال للعامل الديني سطوة في المجتمع الريفي التقليدي ، فيلاحظ مثلاً ان هناك من الشباب من يوافق على متابعة الازياء بشرط عدم تعارضها مع منظومة القيم السائدة في المجتمع وبالذات القيم الدينية اما فئة كبار السن ، وتحديداً جيل الاباء والامهات - وهو ما ينسحب تلقائياً على جيل الاجداد والجدات – فتتمسك بملبسها التقليدي ، وترجع هذا التمسك الى الاسباب الثقافية او الايكولوجية التي سبقت الاشارة اليها ، وترى في مسايرة الازياء فساداً اخلاقياً او انحرافاً عن المعايير الاخرقية التي يجب الالتزام بها في الملبس والسلوك ، فالضوابط الدينية والاخلاقية لها تأثيرها الواضح في رفض فئة كبار السن لمسايرة الازياء ومتابعة احدث الازياء التي تنال في رأيهم من وقار الفرد واحترامه .

اما في المجتمع الحضري فان عامل السن ، او الاختلاف بين الاجيال ، لا يمثل عنصراً حاسماص في متابعة الازياء او عدم متابعتها ، ففي المدن العراقية ، باعتبارها نماذج للمجتمع الحضري ، تختلط الازياء الحضرية بالازياء الريفية باختلاط الانتماءات الجغرافية والمهنية والطبقية (حيث المجتمع الحضري و معايره الخاصة للتدرج الطبقي) ويصعب تقسيم المجتمع الى فئات عمرية او جبلية على اساس الملبس فقط ، ورغم ذلك فانه نلاحظ زيادة اقبال الشباب على متابعة احدث ما تأتي به الازياء ، حيث يكون الاحتكاك الثقافي بالمجتمعات الاكثر تقدماً (ولو بالاطلاع دون المعايشة الفعلية) من خلال وسائل الاعلام والاتصال الحديثة اثر كبير في نشر الازياء وفي مثل هذا المجتمع المفتوح لا يكاد الفرد يشعر بوجود اي تعارض بين مايلبسه هو وما يلبسه الاخرون في المجتمع وذلك لتعدد واختلاف الازياء من ناحية ولعدم وجود الزي التقليدي الذي يرتبط باي ضوابط دينية او عرفية ، كالدشداشة في الريف مثلاً ، وان كان من الملاحظ بين كبار السن في المجتمع الحضري وجود ميل الى ترجيح الالتزام بقدر من الاحتشام ومراعاة الاعتبارات الدينية دون تحديد واضح لما يجب ان يلبس الشخص كما ان نسبة لا يستهان بها من الشباب في المجتمع الحضري تعترض على القليد الاعمى للموضة ، بينما ترحب بها اذا كانت مناسبة لشخصية الفرد وعمره واخلاقيات المجتمع ، وفي مقابل

العامل الديني المؤثر في المجتمع الريفي فان العامل الاقتصادي يحتل مرتبة متقدمة في المجتمع الحضري بين العوامل التي تحدد مدى متابعة الازياء حيث ينظر الى المال باعتباره العامل المتحكم في الملبس .

ثانيا ً : الجوانب النفسية

يتميز الجانب النفسي في السلوك الملبسي للانسان بتوتر ملحوظ بين احساس الانسان تجاه ملبسه خارج المنزل حيث تعمل الملابس التي يرتديها على تهيئة المسرح للتفاعل الاجتماعي بين افراد المجتمع ، واحساسه تجاه ملبسه داخل المنزل ، والذي يكون مختلفاً في المجتمعات الحضرية بالذات عن ملبس الخروج واداء الادوار الاجتماعية المحددة لكل فرد .

وعلى الرغم من اجماع جميع الافراد الذين شملتهم المقابلات الشخصية ذكوراً واناثاً في المجتمعين الريفي والحضري ، ممن يتابعون الازياء على ان ارتداء الملابس الحديثة وفقاً لاحدث اتجاهات الازياء يحقق للانسان شعوراً هائلاً بالفخر والسعادة والرضى عن النفس فان هناك اجماعاً وبنفس الدرجة على ان ارتداء هذه الملابس او اي ملابس اخرى يستلزمها الدور الاجتماعي للفرد خارج البيت يشكل قيداً على حركة الفرد خاصة عند مقارنة شعور الفرد خارج المنزل حيث يتحرر من هذه الملابس المقيدة للحرية ويرتدي الملابس التي يعيش بها بين افراد اسرته وتحقق له الراحة ، سواء كانت هذه الملابس حضرية او ريفية .

ويرتبط بالتاثير النفسي للسلوك الملبسي من حيث مدى مسايرة الفرد للموضة ما يمكن ان نطلق عليه مكملات الملبس او الهيئة العامة للشخص والتي تنتشر في المجتمعات المختلفة بنفس طريقة انتشار الازياء ومن هذه المكملات النظارات الشمسية وجهاز التسجيل المحمول والتليفون المحمول وسلاسل المفاتيح ، وربما كان ارتباط هذه المكملات بالتقدم التكنولوجي من ناحية والاوضاع الاقتصادية من ناحية اخرى هو السبب في انتشارها في المجتمع الحضري بدرجة اكبر من انتشارها في المجتمع الريفي ، حيث تستخدم في المجتمع الحضري كدليل وجاهة اجتماعية او ثراء (حقيقي او مزعوم) بينما اظهرت المقابلات الشخصية التي اجريت في المجتمعات الريفية ان الخجل من استخدام هذه المكملات مازال عاملاً مؤثراً يحد من استخدامها حيث يرى البعض ان استخدام هذه المكملات يتعارض مع الاعراف الريفية والتقاليد فضلاً عن العبء الاقتصادي الذي تمثله .

ثالثاً : التأثر الاجتماعي للازياء بين الانتماء والاغتراب :

اذا كان ارتداء ملبس معين في مكان معين يخلق لدى الفرد احساساً بالانتماء الى الجماعة (كارتداء القميص والبنطلون او البذلة في مكان العمل ، وارتداء بدلة التدريب في النادي الرياضي ، وارتداء ثوب الاستحمام على الشواطئ ، وارتداء الزي الموحد بين افراد اي جماعة يتطلب عملها ارتداء هذا الزي) فان مسايرة الازياء تخلق نفس الاحساس بالانتماء بين حميع الافراد الذين يتابعون الازياء سواء في المجتمع الريفي او المجتمع الحضري ، وقد ذكر بعض الافراد الذين شملتهم المقابلات الشخصية انهم قد يضطرون الى ارتداء ملبس معين لا يتناسب مع شخصياتهم او عمرهم ، ولكنهم يرتدونه لمسايرة الجماعة ، فالازياء في نظرهم هي مسايرة المحيطين بهم في ملبسهم وخاصة جماعة الاصدقاء كما اكد بعضهم ان جماعة الاصدقاء هي الجماعة الوحيدة المؤثرة في نوعية الملابس التي يرتدونها ، ومن هنا فان الازياء تخلق احساسا بالانتماء بين اتباعها بغض النظر عن المركز الاجتماعي او الاقتصادي للفرد ، وحينما يكون النمط السائد للسلوك في جماعة ما هو الشعر القصير فان الشخص الذي لا يلتزم بهذا النمط لا بد وان يستشعر قدراً من التوتر النفسي لخروجه على هذا النمط ، ويصدق ذلك ايضاً على الالتزام بملبس معين من حيث اللون او الشكل(طريقة التفصيل) او الخامة المستخدمة .

ان دراسة الشعور بالتوتر بسبب التعارض بين سلوك الفرد والنمط السائد في السلوك في الجماعة التي يعيش فيها هي المدخل الطبيعي لاختبار مدى تعارض الازياء مع منظومة القيم السائدة في المجتمع ، فاذا كان الخروج على الازياء وسط جماعة تتمسك بها تمثل انحرافاً عن النمط السائد فان اتباع الجماعة معينة ككل للموضة يعتبر انحرافاً عن النمط السائد بين الجماعات الاخرى التي يتكون منها المجتمع ، ومع تفاوت الالتزام بأنماط الملبس التقليدية السائدة في المجتمعين الريفي والحضري يتفاوت انتشار مسايرة الازياء في مجتمع المدينة عنه في مجتمع القرية ، ويعتمد ذلك على مدى قوة ورسوخ التقاليد والاعراف التي يلتزم بها افراد المجتمع ، ففي المجتمع الريفي حيث للدين سطوته وللاعراف والتقاليد تأثيرها القوى في سلوك الافراد من خلال التنشئة الاجتماعية لابناء الجماعة ، تعلل الجماعات الرافضة لمتابعة الازياء هذا الرفض بضرورة التمسك بالدين وتقاليد المجتمع الشرقي التي تؤكد على اهمية الاحتشام في الملبس ، وتنتقد بعض القيم التي ترتبط بالازياء كالاباحية (التعري) والشعور بالكبرياء والتميز عن الاخرين ، وتؤكد هذه الجماعات ايضاً ضرورة ارتداء ما يرضى عنه المجتمع ممثلاً في الاغلبية المتمسكة بالتقاليد ، وان كان ذلك لا يمنع من وجود افراد يجاهرون بعدم اقناعهم بالعادات والتقاليد السائدة ويرغبهم في تغييرها مبررين ذلك بان جسم الانسان ملك خالص له وان الطريقة التي يتم بها تغطية هذا الجسم انما تخضع لذوق الانسان ولا دخل للمجتمع بها .

اما في المجتمع الحضري فقد كانت متابعة الازياء من المسائل التي اجمعت عليها الاراء تقريباً وكان التبرير الذي قدم لهذه المتابعة ضرورة ان يكون الانسان انيقاًوان يكون مظهره جميلاً يحقق له الشعور بالفخر والرضى عنه نفسه ، واذا كان هناك تعارض بين الازياء ومنظومة القيم فان الغلبة في النهاية ستكون للموضة

التي يستقبلها المجتمع لتصبح نمطاً سائدا على نطاق اوسع يأخذ شكل الالزام والسلوك الضروري للنجاح في العمل وفي علاقة الانسان بباقي افراد المجتمع .

نتائج البحث

تم من خلال هذا البحث التوصل الى النتائج الاتية :

١- ان دراسة الازياء – او الطراز السائد من الملبس الذي يتمع بالشعبية في فترة معينة – هي دراسة حديثة نسبياً يجب الاهتمام بها باعتبارها دراسة في التغير الثقافي والاجتماعي كما ينعكس في واحد من اهم جوانب الثقافة المادية وهو الملبس الذي يعبر بدوره عن الهوية الثقافية للجتمعات البشرية المختلفة .

٢- ان مثل هذه الدراسة تحتاج – بسبب الطبيعة الخاصة لموضوعها وما يرتبط به من عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية وتاريخية –الى استخدام منهجية تستمد من مناهج البحث في العلوم المختلفة عدداً من الاليات او الوسائل التي لا يمكن ان تندرج تحت اي منهج واحد ، فتعدد التخصصات العلمية التي يمكن ان يمثل ملبس الانسان احد اهتماماتها يتلاتب عليه منطقياً تعدد المناهج او الطرق المستخدمة في بحث الظاهرة ، ومن هنا فان تحديد اطار العمل ، ووضع التساؤلات ، وملاحظة الظاهرة واللقاءات الشخصية ، والوصف والتحليل ، كل ذلك يمثل اليات لها قيمتها عند دراسة موضوع كموضوع الازياء.

٣- تعتبر الازياء – من حيث هي ابتداع او تقليد لشكل من اشكال الملبس ، تغيراً مقصوداً في مظهر الانسان وسلوكه يحمل رسالة لجميع افراد المجتمع بان احتكاكاً ثقافياً قد حدث وانه لا بد للمجتمع من ان يستجيب لهذا الاحتكاك بالقبول او الرفض ، وتعتبر استجابة المجتمع او بعض قطاعاته للموضة خطوة اولى نحو تعديل او اعادة صياغة الهوية الثقافية للمجتمع .

٤- ان الاستجابة السلوكية للتغيرات التي تطرأ على ملبس الانسان تحت مسمى الازياء تكون في المجتمع الحضري اسرع منها – وابعد تأثراً – في المجتمع الريفي ، وذلك بحكم قوة و رسوخ التقاليد في المجتمع الثقافي المغلق في مقابل تراخي قبضة هذه التقاليد في المجتمع الحضري وانفتاحه على المجتمعات الاخرى .

٥- تختلف العوامل التي تحد من انتشار الازياء في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فحين يلعب الشعور الديني والاحساس بسطوة التقاليد (وهو ما يتمثل في الاحساس بالخجل من مخالفة التقاليد ومتابعة الازياء) دوراً مؤثراً في عدم انتشار الازياء في المجتمع الريفي ، فان العامل الاقتصادي هو الذي يحدد مدى قدرة الفرد على متابعة احدث ما تاتي به الازياء في المجتمع الحضري .

الملخص:

تعتبر الازياء مظهراً من المظاهر التي تعيشها الشعوب ، فانها ولا ريب تشكل مظهراً اخر يلتمس فيه ما تعانيه الشعوب من استغلال من جهة اخرى .

ويعتبر الملبس من اهم عناصر الثقافة المادية التي تحدد – ظاهرياً على الاقل – انتماء الفرد الى جماعة ثقافية او عرقية معينة ، وينعكس ذلك بصورة واضحة في التنوع الهائل في الخامات المستخدمة في صنع الملابس ، وهو تنوع يرتبط عادة بتنوع البيئات الجغرافية التي يعيش فيها الانسان ، كما ينعكس في تنوع الالوان والطرازات التي يكون لمنظومة القيم الثقافية السائدة دور كبير في اختبارها .

ان هذه الدراسة انما هي محاولة بقدر الامكان للوقوف على تطور الازياء في العراق وهي دراسة علمية روعي فيها الطابع القومي والديني والجغرافي كما روعي فيها ان تكون من الدقة بحيث لا تتسع للظنون .

Abstract:

Fashion is a manifestation of peoples are manifestations, they undoubtedly constitute another manifestation which their peoples seek to exploit.

Clothing is one of the most important elements of material culture that determine — ostensibly at least – being a member of certain ethnic or cultural group, and this is clearly reflected in the considerable diversity in the raw materials used in the manufacture of clothing, diversity is usually related to the diversity of geographic environments in which they live, as reflected in the variety of colors and models that have a dominant cultural values system played a major role in testing.

This study is to try as much as possible to assess the evolution of fashion in Iraq a scientific study into account national and religious nature and geographical account be precise so as not to hold misgivings.

- - - - - - - -

المراجع والهوامش :

(١) Caliphate ,patrizia : fashion and worldliness :language and imagery of the clothed body in fashion theory :the journal dress , body & culture , vole .1 issue 1 march 1997 ,p.69

(٢) Horn, Marilyn j.: the second skin Houghton Mifflin Company Boston 1968. p.15.

ربما كان المغول هم اول من استخدم ملابس المنطقة القطبية حيث لم يكن بمقدورهم الهجرة الى الجنوب بسبب حاجز جبال الهيمالايا ، وكان عليهم ان يتأقلموا مع الجو البارد ، انظر :

(٣) Winick, Charles: dictionary of anthropology, philosophical library Inc New York, 1956. p. 135

(٤) Ibid, p. 136.

(٥) Horn, Marilyn j, op cit, p. 224.

(٦) Becker, udo , editor: the continuum Encyclopedia of symbols the continuum publishing company , new york , 1996 . pp.62-63.

(٧) Horn, Marilyn j., op. Cit p. 10.

(٨) **المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية – نخبة من اساتذة قسم الاجتماع – جامعة الاسكندرية – دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٨٤ .**

(٩) **سترة طويلة بصفين من الازرار .**

(١٠) **معطف فضفاض بصف من الازرار واكمام تمتد حتى العنق .**

(١١) **معطف بصف او صفين من الازرار وياقة من القطيفة .**

(١٢) **معطف واق من المطر مزود ببطانة يمكن فصلها عنه وقد يكون بصفين من الازرار وجيوب عميقة وحزام عريض وشرائط على الكتفين.**

(١٣) **قبعة برياتي ، نسبة الى مقاطعة برياتي في شمال غربي فرنسا .**

(١٤) **قبعة مستديرة سواداء من الجوخ الصلب وتاج على شكل قبة وحافة ضيقة .**

(١٥) **قبعة منخفضة من الجوخ اللين ، ذات تاج مجعد .**

(١٦) **قبعة نسوية ضيقة على شكل جرس .**

(١٧) **حذاء منخفض ذو رباط .**

(١٨) **نعل يشد الى القدم باشرطة جلدية .**

(١٩) **حدذاء منخفض ليس له شريط ويحكم شدة الى الرجال .**

(٢٠) **حذاء عالي الساق .**

(٢١) **حذاء ايرلندي غاليظ .**

(٢٢) **سراويل زرقاء ضيقة تزود اجزاؤها الاكثر تعرضاً للبلى بما يشبه الازرار النحاسية المقوية ، وتصنع من الدينيم Denim او الجبن Jean وهما نوعان من القماش قطنى متين مضلع .**

(٢٣) **تنسب هذه السراويل الى طلبة كليات الطبقات الراقية في شرقي الولايات المتحدة الامريكية .**

(٢٤) Horn, Marilyn j. op. cit. p. 146-149.

(٢٥) Ibid, p 442.

(٢٦) Ibid, p 442.

(٢٧) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(٢٨) الاعراف ، ٢٦ .

(٢٩) تفسير القران العظيم للحافظ بن كثير ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧١ ، المجلد الثالث ، ص ٣٩٥ .

(٣٠) ايكة هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفلكلور ، ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢ .

(٣١) Calefato, patrizia, op. cit.p.74.

(٣٢) Ibid, p 72-73.

(٣٣) Schwartz , Barton M.& Ewald,Robert H: Culture And Society,An Introduction to Cultural anthropology ,the Roland press Company – new york , 1968,p.439.

(٣٤) Calefato, Patrizia: op.cit.p.70.

(٣٥) Tripp, Rhoda Thomas: the Introduction Thesaurus of Quotations penguin book, Thomas Y. Crowell Company, Inc, 1970, p212, 213.

(٣٦) Ko,Dorothy:Bondage in time: Footing and FASHION theory, in Fashion Theory, The Journal of Dress,Body&Culture,vol.1,issue 1,March 1997,p.4

(٣٧) Calefato,Patrizia:op. cit. p.75

(٣٨) Ibid, p.70

(٣٩) Horn, Marilyn J. :op.cit.p.79-80

(٤٠) Calefato,Patrizia:op. cit. p.72

(٤١) Ibid, p.71

(٤٢) Ibid, p.74

(٤٣) Palmer,Alexandre:New Directions: Fashion History Studies and Research on North America and England in: Fashion Theory , the Journal of Dress , Body & Cultur,vol.1,issue3,September,1997,p.298

(٤٤) Steele,Valerie:Letter from the Editor, in Fashion theory, the Journal of Dress,body&culture,vol1,issue,March 1997.p.1

(٤٥) Schwartz, Barton M. & ewald, Robert H. OP. cit. P.439

(٤٦) Palmer,Alexandre : op.cit. p.302.

(٤٧) Ibid, p.299

(٤٨) Ibid, p.302

(٤٩) Horn, Marilyn J. :op.cit.p.113

(٥٠) شوقي ضيف ، تحريفات العامية للفصحى ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ١٢٦ .

(٥١) احمد تيمور ، معجم تيمور الكبير في الالفاظ العامية ، اعداد وتحقيق د. حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ ، الجزء الثالث ، ص ٤٣ .

(٥٢) فاروق مصطفى اسماعيل ، الانثروبولوجيا الثقافية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٦٤ .